بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الثاني

١٤٤٠ / ٤ / ٣

وأمَّا التقوىٰ: فحقيقتها العمل بطاعة الله إيمانًا واحتسابًا، أمرًا ونهيًا، فيفعل ما أمر الله به إيمانًا بالأمر وتصديقًا بموعده، ويترُك ما نهىٰ الله عنه إيمانًا بالنهي، وخوفًا من وعيده، كما قال طلق بن حبيب رَحِمَهُ اللَّهُ: إذا وقعت الفتنة فادفعوها بالتَّقوىٰ. قالوا: وما التقوىٰ؟ قال: أن تعمل بطاعة الله علىٰ نورٍ من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله علىٰ نورٍ من الله تخاف عقاب الله. وهذه من أحسن ما قيل في حدِّ التقوىٰ.

فإنّ كل عملٍ لابد له من مبدإٍ وغاية، فلا يكون العمل طاعة وقربة حتىٰ يكون مصدره عن الإيمان، فيكون الباعث عليه هو الإيمان المحض، لا العادة، ولا الهوىٰ، ولا طلب المحمدة والجاه... وغير ذلك؛ بل لابد أن يكون مبدؤه محض الإيمان، وغايته ثواب الله تعالىٰ وابتغاء مرضاته، وهو الاحتساب.

الحمد لله ربِّ العالمين، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلَّىٰ الله وسلم عليه وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين.

أمَّا بعد.. فكلامُ ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ كما عرَفنا في بيان قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٢﴾ [المائدة] ومن تمام التَّعاون علىٰ البر والتَّقوىٰ أن يكون المتعاوِنُون عليه علىٰ درايةٍ بالبر ودرايةٍ بالتَّقوىٰ، ولهذا أخذ رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ في بيان ذلك، فبيَّن ما يتعلق بمعنىٰ البر ومدلوله، وشرع هنا في بيان معنىٰ التَّقوىٰ ومدلولها.

والتقوىٰ أصلها: أن يجعل المرء بينه وبين ما يخشاه وقاية تقِيه، فمن خاف حرَّ الشمس استخدم شمسية تقيه من حرها، ومن خاف شدّة البرد استخدم واستعمل ملابس تقيه من البرد... وهكذا، ومن خاف عِقاب الله والوقوف بين يدي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وخاف النار وسخط الجبار، عليه أن يجعل بينه وبين ما يخشاه من غضب الله وعقابه وقايةً تقيه، هذا الذي يُجعل هو التَّقوىٰ، هذا الذي يُجعل وقاية بين العبد وبين غضب الرب وسخطه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو التَّقوىٰ، وذلك بفعل ما أمر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وتركِ ما نهىٰ عنه وزجر.

ولهذا قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في بيان حقيقةِ التَّقوىٰ: (العمل بطاعة الله إيمانًا واحتسابًا) هذه حقيقة التقوىٰ، حقيقة التقوىٰ أن يعمل المرء بطاعة الله أمرًا ونهيا، إيمانًا واحتسابًا، أمرًا: أي فعلًا للأوامر، ونهيًا: أي تركًا للنواهي، فحقيقة التقوىٰ أن يكون العبد مطيعًا لله، ممتثلًا أوامر الله، منتهيًا عما نهاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عنه، ويفعل ذلك إيمانًا واحتسابًا، إيمانًا بالله وصدق موعوده جل في علاه، واحتسابًا؛ أي: لثوابه وطلبًا لما أعده الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لعباده

المطيعين المحسنين الممتثلين أمر الله ﷻ.

ثم نقل رَحِمَهُ اللَّهُ هذا التعريف الجامع لطلق بن حبيب، وهو من علماء التابعين، سُئِلَ لمّا وقعت الفتنة، سُئِلَ كيف نتّقيها؟ ما الأمر الذي نتّقي به الفتنة؟ فقال رَحِمَهُ اللَّهُ: (ادفعوها بالتقوىٰ). وهذا كلامٌ عظيم جدًّا مليء بالفقه، قال: اتّقوها: أي الفتنة، بالتقوىٰ، (ادفعوها بالتقوىٰ)، وهذا هو أعظم ما تُتّقىٰ به الفتن، وتكون به النجاة منها بإذن الله ﷻ، أن يتّقيها بتقوىٰ الله وأن يدفعها بتقوىٰ الله ﷻ، فقالوا له: وما التَّقوىٰ؟ قال: أن تعمل بطاعةِ الله علىٰ نورٍ من الله رجاء ثواب الله، وأن تترك معصية الله علىٰ نور من الله خيفة عذاب الله، وهذا كما قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ: من أحسن ما قيل في حدِّ التقوىٰ.

ونقل هذا التعريف الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ في «سير أعلام النبلاء» ثم قال مثنيًا عليه قال: أبدَعَ وأوجز، فلا تقوىٰ إلا بعمل، ولا عمل إلا بتروٍّ من العلم والاتِّباع، تروٍّ؛ أي: أخذ العلم والاتباع برويّة وأناة، ولا ينفع ذلك إلا بالإخلاص لله، لا ليُقال: فلان تارك للمعاصي بنور الفقه، إذ المعاصي يفتقِر اجتنابها إلىٰ معرفتها، ويكون التَّرك خوفًا من الله، لا ليُحمد بتركها، فمن داوم علىٰ هذه الوصية فقد فاز، فهذه الوصية وأيضا هذا البيان لمعنىٰ التقوىٰ من قول طلق رَحِمَهُ اللَّهُ كلامٌ موجز وبليغ ووافي في بيانِ حقيقة التقوىٰ، وأنَّ التقوىٰ تحتاج إلىٰ روِيّة بالعلم والاتباع، وتحتاج إلىٰ احتساب في طلب الأجر والثواب من الله ﷻ والخوف من عقابه جل وعلا، ولهذا قال: أن تعمَل بطاعة الله علىٰ نورٍ من الله.

وفي معنىٰ ذلك قول الله ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ﴾ [الشورىٰ:٥٢] (علىٰ نور من الله): علىٰ بصيرة وبيِّنة في المأمور وفي المنهي عنه، ومن لم يكن علىٰ بصيرة بالمنهي كيف يتّقيه؟ مثل ما قيل قديمًا: كيف يتقي من لا يدري ما يتقي!؟ الذي لا يدري ما هي الذنوب وليس عنده معرفة بها كيف يتقيها!؟ ولهذا الأوامر وكذلك النواهي تحتاج إلىٰ العلم وتفتقر إليه، لابد فيها من العلم، ولابد أن يكون أيضًا ما يقع من العبد من أعمال خالصةً لله يبتغي بها ثوابه وأجره وعظيم موعُوده ﷻ.

ولهذا كثيرا ما يُقرن بين هذين الأصلين في مثل قول النبيِّ ﷺ: «من صام رمضان إيمانا واحتسابا» و«من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا» ونظائره..

نعم، كثيرا ما يُقرن بين هذين الأصلين الإيمان والاحتساب، الإيمان بالله وبموعوده وثوابه وما أعدّه للمطيعين من جميل الثواب وعظيم المآب، وأن يحتسب، يحتسب الأجر والثواب عند الله ﷻ، يرجو علىٰ عمله هذا عظيم الثواب عند الله ﷻ.

فقوله: (علىٰ نورٍ من الله) إشارة إلىٰ الأصل الأول، وهو الإيمان الذي هو مصدر العمل والسبب الباعث عليه.

(الإيمان الذي هو مصدر العمل والسبب الباعث عليه)، والإيمان لا يكون له قيام إلا علىٰ العلم، ففيه العلم، ولهذا النُّور يُراد به نور الإيمان القائم علىٰ العلم الصَّحيح، المستمد من كتاب الله ﷻ، ولهذا تقدَّم معنا في الآية التي من أواخر سورة الشورىٰ ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورىٰ:٥٢] فقول طلق: (علىٰ نورٍ من الله)، أي: علىٰ إيمان صحيح قائم علىٰ علمٍ مستمَدٍّ من كتاب الله وسنة رسوله صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

وقوله: (ترجو ثواب الله) إشارةٌ إلىٰ الأصل الثاني وهو الاحتساب، وهو الغاية التي لأجلها يوقَع العمل، ولها يُقصَد به.

(ترجو ثواب الله) هذا إشارة إلىٰ الأمر الثاني وهو الاحتساب، (إيمانًا واحتسابًا)، احتساب الثواب ورجاء الموعود، موعود الله ﷻ، وهو الغاية التي لأجلها يوقع العمل ولها يقصد به، مثل ما قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء] أي: مرضيا مقبولًا عند الله ﷻ.

ولا ريب أنّ هذا جامعٌ لجميع أصول الإيمان وفروعه، وأن البر داخل في هذا المسمىٰ.

البر داخلٌ بهذا المسمىٰ للتقوىٰ، وعرفنا أيضًا فيما سبق مسمَّىٰ البر الذي يجمع الخير كلّه أن التقوىٰ داخلة في ذلك المسمَّىٰ.

وأما عند اقتران أحدهما بالآخر؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٢].

هنا ننتبه إلىٰ أنّ التعريف السابق للبر والسابق أيضًا للتقوىٰ تعريفٌ له بالإطلاق، لأنَّه يشمل الخير كله والدين أجمَعه، لكن عند الاقتران، عند اقتران أحدهما بالآخر كما في الآية المعني شرحُها هنا، وهي قوله تعالىٰ: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ فإنّ المعنىٰ يفترق، يأخذ البر جزءًا من المعنىٰ العام، والتَّقوىٰ يأخذ الجزء الباقي، يقتسمان المعنىٰ العام، يأخذ البر جزءٌ من المعنىٰ والتقوىٰ تأخذ الجزء الباقي علىٰ القاعدة التي أشرت وذكرها الحافظ ابن رجب رحمه الله في «جامع العلوم والحكم»، قال: إنّ من الأسماء ما يكون شاملًا لمسمَّياتٍ متعددة عند إفراده وإطلاقه، فإذا قُرن ذلك الاسم بغيره صار دالًّا علىٰ بعض تلك المسميات، والاسم المقرون به دالٌّ علىٰ باقيها.

وأما عند اقتران أحدهما بالآخر؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾ فالفرق بينهما فرقٌ بين السبب المقصود لغيره، والغاية المقصودة لنفسها، فإن البرّ مطلوبٌ لذاته إذ هو كمال العبد وصلاحه الذي لا صلاح له بدونه كما تقدَّم، وأمّا التقوىٰ فهي الطريق الموصلة إلىٰ البر والوسيلة إليه، ولفظها يدل علىٰ هذا، فإنها فعلىٰ من وقىٰ يقي، وكان أصلها وقوىٰ، فقلبوا الواو تاء، كما قالوا: تُرَاث من الوراثة، وتُجَاه من الوجه، وتُخمَة من الوخَم... ونظائره، فلفظها دالٌّ علىٰ أنها من الوقاية، فإنَّ المُتَّقِيَ قد جعل بينه وبين النار وِقاية، فالوقايةُ من باب دفع الضرر، والبرُّ من باب تحصيل النفع، فالتقوىٰ كالحِمية، والبر كالعافية والصحة.

هذا بيان من ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ للبر والتقوىٰ إذا اجتمعا في الذِّكر، وعرفنا القاعدة أنّ هذه الألفاظ وهذه الأسماء إذا اجتمعت في الذِّكر افترقت في المعنىٰ، أصبح لكل لفظٍ معنًىٰ خاص، أصبح لكل معنًىٰ لفظٌ خاص، والذي حرَّره ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في الفرق بينهما، أن البرّ مطلوب لذاته، والتقوىٰ طريقة موصلة إليه، لأن التقوىٰ وقاية، كأنك بالبر تفعل الخيرات الموصلة إلىٰ الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، وبالتقوىٰ تتَّقي ما يعثّرك عن الوصول إلىٰ هذه الخيرات، ويثنيك عن هذا الطريق وهي المعاصي.

ولهذا جاء عن غير واحد من السلف في الفرق بينهما حال الاجتماع، وهذا يعني جاء في التفسير المأثور عن بعض السلف ابن عباس وغيره، قالوا: البر فعل المأمور، والتقوىٰ ترك المحظور، أي: اجتناب المنهي، فالبر فعل المأمور، ما أمر سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ به من أنواع الطاعات، والتقوىٰ اجتناب المنهي، اجتناب ما نهىٰ الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عنه، تجتنب المنهي، واجتناب المنهي فيه دفع الضَّرر مثل ما ذكر ابن القيم، والبر الذي هو فعل الطَّاعات والأوامر من باب تحصيل المنافع واكتساب الأرباح العظيمة بالطاعات التي يقوم بها العبد، متقربًا بها إلىٰ الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، قال: (فالتقوىٰ كالحِمْية والبر كالعافية والصحة).

وهذا بابٌ شريفٌ يُنتفع به انتفاعٌ عظيمٌ في فهم ألفاظ القرآن ودلالاته، ومعرفة حدود ما أنزل الله علىٰ رسوله، فإنه هو العلم النَّافع، وقد ذم سبحانه في كتابه من ليس له علمٌ بحدود ما أنزله علىٰ رسوله، فإنّ عدم العلم بذلك مستلزمٌ مفسدتين عظيمتين:

إحداهما: أن يدخُل في مسمَّىٰ اللفظ ما ليس منه، فيُحكم له بحكم المراد من اللفظ، فيُسَوّىٰ بين ما فرّق الله بينهما.

والثانية: أن يُخْرِجَ مِن مسمَّاه بعضُ أفراده الداخلة تحته، فيُسْلَب عنه حكمه، فيفرَّق بين ما جمع الله بينهما.

نعم، قوله رحمه الله: (هذا باب شريف)، أي: معرفة الحدود، (حدود ما أنزل الله)، والحدود عندما يقول:

﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ هذا في باب الأوامر، وأيضا في باب النواهي، فحدود الله التي هي أوامره التي أمر عباده بها ﷻ لابد من معرفتها من أجل أن يفعلها العبد، متقرِّبًا بها إلىٰ الله ﷻ، وحدوده التي هي النواهي، حدوده ﷻ التي هي النَّواهي، لابد من معرفتها من أجل أن يجتنبها العبد؛ لأن من لم يعرف حدود الله التي نهىٰ الله عنها كيف يجتنبها؟ ومن لم يعرف حدود الله التي أمر بها كيف يفعلها؟ فلابد من هذا الباب الشَّريف من العلم، معرفة الحدود، حدود ما أنزل الله ﷻ، وهذا يتناول باب الأوامر ويتناول باب النواهي ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ﴾ [البقرة:٢٢٩]، ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقۡرَبُوهَاۗ﴾ [البقرة:١٨٧] الحُدود في الأوامر وكذلك في النّواهي، لابد من معرفة حدود الله التي هي أوامره لتُفعل، ولابد أيضًا من معرفة حدود الله التي هي نواهيه لتُجتنب وتُتَّقىٰ.

ومن لم يكن علىٰ معرفة، ما الذي يحدث؟ يقول: يستلزم (مفسدتين عظيمتين، أن يدخل في مسمىٰ اللفظ ما ليس منه، فيُحكم له بحكم المراد من اللفظ)، عندما أدخل في اللفظ ما ليس منه، وهذا من جهله بحدود الله، لأنه لو كان علىٰ علم بحدود الله لما أدخل فيها ما ليس منها، (فيسوِّي بين ما فرّق الله بينهما، والثانية أن يخرج من مسمىٰ) اللفظ (بعض أفراده الداخلة تحته، فيُسلب عنه حكمه فيفرق بين ما جمع الله بينهما).

والذكي الفطِن يتفطّن لأفراد هذه القاعدة وأمثلتها، فيرىٰ أنّ كثيرًا من الاختلاف أو أكثره إنما نشأ عن هذا الموضع، وتفصيلُ هذا لا يفي به كتابٌ ضخم.

ومن هذا لفظ الخمر، فإنه اسم شاملٌ لكل مُسكِر، فلا يجوز إخراج بعض المسكرات منه، وينفىٰ عنها حكمه.

وكذلك لفظ الميسر، وإخراج بعض أنواع القِمَارِ منه.

وكذلك لفظ النكاح، وإدخال ما ليس بنكاح في مسمَّاه.

وكذلك لفظ الربا، وإخراج بعض أنواعه منه، وإدخال ما ليس بربًا فيه.

وكذلك لفظ الظُّلم والعدل، والمعروف والمنكر... ونظائره أكثر من أن تحصىٰ.

والمقصود أنّ المقصود من اجتماع الناس وتعاشُرِهم التعاون علىٰ البر والتقوىٰ، فيُعِين كلُّ واحدٍ صاحبَه علىٰ ذلك علمًا وعملًا.

فإنّ العبدَ وحدَه لا يَستقلُّ بعلمِ ذلك ولا بالقُدرَةِ عليه، فاقتضت حكمة الربِّ سبحانه أن جعل النَوعَ الإنساني قائمًا بعضه ببعضٍ، معينًا بعضه لبعض.

هذا كلام عظيم جدًّا، ينبّه فيه ابن القيم رحمه الله تعالىٰ علىٰ ما ينبغي أن يستفيده المسلم وطالب العلم من هذه

الآية العظيمة ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾، فيقول: (والمقصود أن المقصود من اجتماع الناس وتعاشرهم التعاون)، إن أخلفوا هذا الأمر، التعاون علىٰ البر والتقوىٰ، فلم يجعلوه مقصودًا لتعاشُرهم، حصل بينهم تعاونٌ علىٰ غير ذلك، أُشبِّه ما يقوله ابن القيم هنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ بكلام أهل العلم في اللسان، اللسان لابدَّ له من كلام، إن لم يشغله صاحبه بكلام فيه خيرٍ وفائدة، اشتغل بالباطل واللَّهو، والناسُ في اجتماعاتهم لابد من تعاون، في اجتماعات النَّاس لابد من تعاون، إن لم يكن هِمّتهم في اجتماعهم التَّعاون علىٰ البر والتقوىٰ انحرف أمر التَّعاون فيهم إلىٰ تعاونٍ علىٰ خلاف ذلك، ولهذا ينبغي علىٰ النَّاس أن يجعلوا من أنفسهم همَّة في اجتماعهم علىٰ التعاون الذي أمرهم الله به ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾.

قال: (والمقصود أن المقصود من اجتماع الناس وتعاشرهم التعاون علىٰ البر والتقوىٰ، فيُعِينُ كلُّ واحدٍ صاحبه علىٰ ذلك علمًا وعملا، فإنّ العبد وحده لا يستقلّ بعلم ذلك ولا بالقدرة عليه)، ولهذا لابد من تعاون، لابدّ من تعاون، وقد قال الله ﷻ لنبيِّه موسىٰ عليه السلام: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ [القصص:٣٥] فالمؤمن بإخوانه، ومعونةً له علىٰ الخير وعلىٰ طاعة الله ﷻ، وكلما وفق المرء لإخوانٍ يشدون من أزره ويعينونه علىٰ طاعة الله، كان ذلك أكثر وأقوىٰ له في المُضي في طريق الخير والعبادة والتقرب إلىٰ الله ﷻ، والسلامة من المهالك.

قال: (فاقتضت حكمة الرب أن جعل النوع الإنساني قائمًا بعضُه ببعض، معينًا بعضه لبعض)، هذا أمرٌ جُعِلَ جِبلّة في الناس، لكن انظر ماذا يكون التعاون، بين الناس، التَّعاون موجود في كل المجتمعات؛ لكن من لم يجعلوا همَّتهم في تعاونهم علىٰ البر والتَّقوىٰ كما أمر الله، خرج بهم التعاون إلىٰ مذاهب شتَّىٰ وطرائق قِددًا، يتعاونون عليها ويتكاتفون تكاتُفًا عظيمًا، انظر مثلا ما جاء في الآية ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ۝٦﴾ [ص] هذا تعاون علىٰ الصَّبر علىٰ الشِّرك، والبقاء علىٰ الكفر بالله ﷻ، وصدّ وردّ دعوة الأنبياء والمرسلين عليهم صلوات الله وسلامه، فهذه لفتة عظيمة جدًّا من ابن القيم مستفادة من هذه الآية أنّ التَّعاون موجود، والله ﷻ جعل النَّاس هذا شأنهم، معينٌ بعضُهم لبعض، فإن لم يجعلوا تعاونهم قائمًا علىٰ البر والتَّقوىٰ خرج إلىٰ مذاهب شتَّىٰ وطرائق متنوعة.

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾ [المائدة:٢]

والإثم والعدوان في جانب النَّهي نظيرُ البرِّ والتقوىٰ في جانب الأمر.

والفرق ما بين الإثم والعدوان فرقٌ ما بين مُحَرَّمِ الجِنْس ومُحَرَّم القَدْر.

فالإثم: ما كان حرامًا لجنسه.

والعدوان: ما حُرِّمَ الزيادةُ في قَدْره، وتعدّي ما أباح الله منه.

فالزنىٰ، وشرب الخمر، والسرقة، ونحوها إثم.

ونكاح الخامسة واستيفاء المجنْيِّ عليه أكثر من حقه، ونحوه عُدوان.

فالعدوان: هو تعدي حدود الله التي قال فيها: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾﴾ [البقرة].

وقال في موضع آخر: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَاۗ﴾ [البقرة:١٨٧] فنهىٰ عن تعديها في آية، وعن قربانها في آية، وهذا لأن حدوده سبحانه هي النهايات الفاصلة بين الحلال والحرام، ونهاية الشيء تارة تدخل فيه فتكون منه، وتارة لا تكون داخلة فيه، فيكون لها حكم مقابله، فبالاعتبار الأول نهىٰ عن تعديها، وبالاعتبار الثاني نهىٰ عن قربانها.

نعم، يوضّح هذا الذي ذكر رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ في معنىٰ حدود الله، الحديث الذي فيه المثل العظيم الذي ذَكر النبي ﷺ أن الله ضربه للعباد، قال عليه الصلاة والسلام:

«ضربَ اللهُ تعالىٰ مثلًا صراطًا مستقيمًا، وعلىٰ جنْبَتَيِ الصراطِ سورانِ، فيهما أبوابٌ مُفَتَّحَةٌ، وعلَىٰ الأبوابِ ستورٌ مُرْخَاةٌ، وعلىٰ بابِ الصراطِ داعٍ يقولُ: يا أيُّها الناسُ؛ ادخلوا الصراطَ جميعًا ولَا تَتَعَوَّجوا، وداعٍ يدعُو مِنْ فَوْقِ الصراطِ، فإذا أرادَ الإنسانُ أنْ يفتحَ شيئًا مِنْ تِلْكَ الأبْوابِ قال: وَيْحَكَ لا تَفْتَحْهُ، فإنَّكَ إنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ، فالصراطُ الإسلامُ، والسُّورانِ حدودُ اللهِ، والأبوابُ الْمُفَتَّحَةُ محارِمُ اللهِ تعالىٰ، وذلِكَ الدَّاعِي علىٰ رأسِ الصراطِ كتابُ اللهِ، والداعي مِنْ فوقٍ واعظُ اللهِ في قلْبِ كُلِّ مسلِمٍ» [صحيح الجامع].

قال عليه الصلاة والسلام: إن الله ضرب مثلًا صراطًا مستقيمًا، وعلىٰ جَنْبَتَيّ الصراط أبواب، وعلىٰ الأبواب ستورٌ مُرْخَاة، وداعٍ من أول الصِّراط يقول: يا عباد الله أدخلوا الصراط ولا تعوجوا، وداعٍ من فوق الصراط يقول: يا عبد الله لا تفتح الباب، فإنك إن فتحته تَلِجْهُ. أما الصراط المستقيم فهو الإسلام، وأما السوران فحدود الله، وأما الأبواب المفتّحة التي عليها ستورٌ مرخاة فمحارم الله، وأما الداعي من أول الصراط فكتاب الله، وأما الداعي من فوق الصراط فواعظ الله في قلب كل مسلم.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ حدود الله هي النهاية الفاصلة بين الحلال والحرام، إذا ذكرت هذا المثل العظيم، وهو في حديثٍ صحيح ثابت في «المسند» وغيره، إذا ذكرت هذا المثل اتضح لك الأمر تمامًا، يقول: (حدود الله هي) النهاية الفاصلة أو (النهايات الفاصلة بين الحلال والحرام)، ما كان داخل السور، ما كان داخل السورين ما هو؟ ما كان داخل السورين وأنت تمشي في داخل السُّورين في الصراط المستقيم، ما كان

داخل السُّورين هذا في حد الحلال، حد المشروع، حد المأذون، المأمور به، وما كان خارج السور أو خارج السورين هذا؟ الحرام، والحد الفاصل بينهما هذا السُّور، فاصل بين الحلال والحرام.

والأبواب التي عليها ستورٌ مرخاة، هذه منافذ يخرج منها والعياذ بالله من حاد عن الصراط، وانحرف عن الجادة وخرج عن حد الحلال إلىٰ حد الحرام والعياذ بالله، فـ(حدود الله هي النهايات الفاصلة بين الحلال والحرام، ونهاية الشيء تارةً تدخل فيه فتكون منه، وتارةً لا تكون داخلةً فيه فيكون لها حكم مقابله، فبالاعتبار الأوَّل نهىٰ عن تعدِّيها، وبالاعتبار الثاني نهىٰ عن قُربانها)، مرَّةً نهىٰ عن تعدي الحدود، ومرةً نهىٰ عن قربانها، قال: ﴿فَلَا تَقۡرَبُوهَاۗ﴾ هذا المنهي، وأما الذي أمر به وأباحه لا نتعدَّاه، لا نتجاوزه لغيره.

وحاصل القول في الفرق بين الإثم والعدوان، أن:

الإثم: المعاصي والذنوب بأنواعها.

والعدوان: الظلم بأنواعه، الظلم والتعدي بأنواعه.

فصلٌ

فهذا حكم العبد فيما بينه وبين الناس، وهو أن تكون مخالطته لهم تعاونًا علىٰ البر والتقوىٰ علمًا وعملًا.

وأما حاله فيما بينه وبين الله تعالىٰ فهو إيثار طاعته، وتجنُّب معصيته، وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ﴾.

سبق أن قرر ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ في أول هذه الرسالة، أو أول هذه الوصية، أن الآية اشتملت علىٰ جميع مصالح العباد، في معاشهم ومعادهم، فيما بينهم في بعضهم بعضًا، وفيما بينهم وبين ربهم:

أما الذي بينهم بعضهم بعضًا ففي قوله: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾.

وأما فيما بينهم وبين الله ففي قوله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ﴾ أي: حقِّقوا تقواهُ سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بتعظيمه، التَّعظيم اللائق به وبمعرفته ومعرفة عظمته وجلاله وبالإيمان به وتوحيده، وإخلاص الدِّين له سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقدره جل وعلا حقَّ قدره، وإيثار طاعته وتجنُّب معاصيه سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهذا فيما يتعلَّق في حال العبد بينه وبين الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وأما حاله فيما بينه وبين الله تعالىٰ فهو إيثار طاعته وتجنُّب معصيته، وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ﴾

فأرشدت الآية إلىٰ ذِكر واجب العبد بينه وبين الخلق، وواجبه بينه وبين الحق.

نعم، الذي بينه وبين الخلق في قوله: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾، والذي بين العبد وبين الحق؛ أي: الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ﴾.

ولا يتم له أداء الواجب الأول إلا بعزل نفسه من الوسط، والقيام بذلك لمحض النصيحة والإحسان ورعاية الأمر.

ولا يتمُّ له أداء الواجب الثاني إلا بعزل الخلق من البين، والقيام به لله إخلاصًا ومحبة وعبودية.

فينبغي التفطن لهذه الدقيقة، التي كل خلل يدخل علىٰ العبد في أداء هذين الواجبين، إنما هو من عدم مراعاتها علمًا وعملًا.

نعم، هذا كلام عظيم جدًّا، ينبِّه فيه ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ علىٰ أهمية الإخلاص، وقصد الله وحده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالعمل، وألّا يرىٰ الإنسان نفسه شيئًا؛ بل يؤدِّي ما يؤديه من أعمال، سواءً في ما يتعلَّق في تعاونه مع العباد علىٰ البر والتقوىٰ قربةً لله وطلبًا لما عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وكذلك فيما يتعلَّق بحقوق الله وإيثار طاعته، والبُعد عن معاصيه، يؤدِّيها أيضا لأجله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وطلب مرضاته، فيقول ابن القيم: (لا يتم الواجب الأول ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾ إلا بعزل نفسه من الوسط، والقيام بذلك لمحض النصيحة، والإحسان، ورعاية الأمر)، انتبه لهذا، يقول ابن القيم: هذه دقيقة ينبغي التفطُّن لها، عزل نفسه من الوسط يعني: لمّا يأمر، لمّا يدعو، لمّا ينصح، لمّا يعظ، لمّا يخطب، لمّا يدرّس ويعلم، لمّا يؤلِّف ويكتب كتابًا، إلىٰ غير ذلك... قد تقفز نفسه هنا تطلب شيئا، فتقفز إلىٰ الوسط ليكون لها شيء، ما هو؟ شهرةً، صيتًا، سمعةً، ذكرًا، ثناءً... إلىٰ غير ذلك، تطلب ذلك، ويكون مقصودًا، فيقول رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ ينبغي أن يعزل نفسه من الوسط.

الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ في عزل نفسه من الوسط، الذي يعبّر عنه ابن القيم هذا التعبير يقول: وددت لو أن الناس دخلوا في دين الله أفواجًا ولو قرِّض جسمي بالمقاريض! فقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف:١٠٨] قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ في «كتاب التوحيد» لما أورد هذه الآية، قال: أدعو إلىٰ الله لا إلىٰ نفسي، لأن بعض الناس قد يدعو إلىٰ دين الله، إلىٰ الخير، إلىٰ الفضيلة، إلىٰ غير ذلك... لكنه مُبطّنٌ مع ذلك دعوة إلىٰ ماذا؟ إلىٰ نفسه! من حيث الصِّيت، الشهرة، السمعة، شيء جديد الآن في زماننا كسب الأصوات، يكون له أصوات كثيرة، هذه الأمور كلها يعزلها، ولا يقوم التعاون علىٰ البر والتقوىٰ إلا بعزل النفس من الوسط، (والقيام بذلك لمحض النصيحة والإحسان ورعاية الأمر) فقط، يفعل ذلك نصحًا، ديانةً، تقرُّبًا لله لا يريد شيئا لنفسه، وإنَّما يفعل ذلك نُصحًا لله، رغبةً في أن يهتدي العباد وأن يفعلوا طاعة الله، أن يتقرَّبوا إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، هذا في جانب التعاون علىٰ البر والتقوىٰ.

في جانب حقِّ الله ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ﴾ يقول: لا يتم أداء هذا الواجب (إلا بعزل الخلق من البين)، أن يكون بين العبد وبين الله في أدائه الطاعات وفعله لحقوق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، (بعزل الخلق من البين والقيام به لله، إخلاصًا ومحبةً

وعبودية)، فإذا جاء في العبادة، إذا جاء في باب العبادة (الصلاة والصيام والصدقة...) وأدخل الخلق هنا، كيف يدخلهم؟

«أَلَا أُخْبِرُكُمْ بما هو أَخْوفُ عليكم عندي مِنَ المسيحِ الدجالِ؟ الشركُ الخفِيُّ: أنْ يقومَ الرجلُ فيُصَلِّيَ فيُزَيِّنَ صلاتَهُ لِمَا يَرَىٰ مِنْ نَظَرِ رجلٍ» [حسنه الألباني في صحيح الجامع].

(أخوف ما أخاف علىٰ أمتي الشرك الخفي) قال: (يقوم الرجل فيزين صلاته لما يرىٰ من نظر الرجل) فهذا لابد أن يعزل، عزل الخلق من البين؛ يعني: أن يكون بين العبد وبين الله في إخلاصه وعبادته لله، فإذا وُجد الخلق هنا خرج عن الإخلاص إلىٰ ماذا؟ إلىٰ الرِّياء، إلىٰ السُّمعة، إلىٰ غير ذلك من خوارم النِّيّة، فيحذر العبد من ذلك أشدّ الحذر، فيقوم به لله خالصًا ومحبةً وعبوديةً لله، قال: (فينبغي التفطن لهذه الدقيقة، التي كلُّ خلل يدخل علىٰ العبد في أداء هذين الواجبين، إنَّما هو من عدم مراعاتها علمًا وعملًا)..

وهذا هو معنىٰ قول الشيخ عبد القادر قدَّس الله روحَه: كن مع الحق بلا خلق، ومع الخلق بلا نفس، ومن لم يكن كذلك لم يزل في تخبيط، ولم يزل أمره فرطا.

والمقصود بهذه المقدمة ذكر ما بعدها.

قال (وهذا هو معنىٰ قول الشيخ عبد القادر) أي الجيلاني (قدس الله روحه: كن مع الحق بلا خلق، كن مع الحق) أي مع الله، (بلا خلق) أي: اعزل الخلق من البين بينك وبين الله، فاجعل عباداتك وأعمالك وطاعاتك وقرباتك... اجعلها كلها خالصةً لله، لا تبتغي بها إلا وجه الله ﷻ، وكن (مع الخلق بلا نفس)، يعني قصده رَحِمَهُ اللَّهُ من كونك مع الخلق بلا نفس، أي: لا تجعل لنفسك حظًّا، تطلب حظًّا لنفسك وتعامل الخلق وأنت تطلب محض حظِّ نفسك، يعني مثلًا بعض الناس قد يعظ ويذكر وهو في وعظه وتذكيره يبحث شيئًا لنفسه، يطلب شيئًا لنفسه، فكن مع الخلق بلا نفس، لا ترىٰ نفسك شيئًا، لا في ما تقدِّمه من علم ومن وعظ ومن تذكير، كل ذلك لا ترىٰ لنفسك شيئًا، واجعل ما تقولُه لهم محض نصيحة ورغبة في نفعهم وإفادتهم، وأن يكون صلاحهم بهذا الخير الذي ييسره الله ﷻ لهم من طريقك.

(ومن لم يكن كذلك لم يزل في تخبيطٍ ولم يزل أمره فرطا)، ومعنىٰ (فرطا) أي: ضائعًا، يضيع عليه أمره، ولا يجتمع أمر الإنسان إلا بأن يُخلص دينه لله ﷻ، وأن يَقصد بعمله التقرب إلىٰ الله ﷻ وحده جل في علاه، قال: (والمقصود بهذه المقدِّمة ذكر ما بعدها)، سينتقل إلىٰ الحديث عن السير والسفر إلىٰ الله ﷻ، وما يحتاجه هذا السير، ما يحتاج إليه هذا السير من الزَّاد، وما الذي ينهض بالمُسلم للمحافظة علىٰ هذا السير وقوّته، كل هذا يأتي تفصيله في الفصل الآتي عند ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ.

نسأل الله الكريم أن ينفعنا أجمعين بما علمنا، وأن يزيدنا علمًا وتوفيقا، وأن يصلح لنا شأننا كله، وألا يكلنا إلىٰ أنفسنا طرفة عين، إنه تبارك وتعالىٰ سميع قريب مجيب.